

تيار الوعي في رواية "حكاية جدار" للكاتب ناصر أبو سرور

Stream of Consciousness in the Novel "The Story of a Wall" by Nasser Abu Surur

معاذ إشتية، جامعة الاستقلال أريحا، فلسطين، khalidk_51@hotmail.com

تاريخ قبول المقال: 02-12-2024

تاريخ إرسال المقال: 25-11-2024

المخلص :

أصبح مصطلح " تيار الوعي " يعبر عن اتجاه حديث في الفنون السردية النثرية ؛ وقد جاء في مضمونه يعبر عن ثورة على الأساليب السردية التقليدية، التي سبقته وكانت تعتمد على السرد الخطي التصاعدي والتتابعي؛ وقد ظهر " تيار الوعي " في الرواية العربية منذ الستينات من القرن الماضي في ضوء التأثير بالحركة الأدبية الغربية وطرائق والتحويلات التي تجري على طرائق الكتابة .

من هنا، يأتي هذا البحث ليكشف عن ملامح " تيار الوعي في رواية " حكاية جدار " للكاتب ناصر أبو سرور، وقد ظهرت هذه الملامح في مجموعة من التقنيات الأسلوبية الخاصة بهذا التيار، مثل، السرد المنقطع، والتداعي الحر، ومناجاة النفس، والمونولوج الداخلي .

الكلمات المفتاحية : تيار الوعي، رواية، حكاية جدار.

Abstract: The term “stream of consciousness” has come to express modernist prose narrative arts .Its content expresses a revolution against the traditional narrative methods that preceded it and relied on linear ,ascending and sequential narration.

The term “stream of consciousness “has appeared in the Arabic novel since the sixties of the last century in the light of the influence of western literary movement and the methods and transformations taking place in the methods of writing .

According, this search comes to reveal lth teachers of the “stream of consciousness” in the novel “ story of the wall” by the writer Naser Abu Srou .These features appeared in a group of stylistic techniques specific to this stream such as intermittent narration ,free association, soliloquy ,and enter monologue.

Key words: stream of consciousness, story of the wall.

مقدمة :

يمثل تيار الوعي اتجاهها روائيا ومساحة رحبة ؛ يلجأ إليه كثير من الكتاب ليطلقوا العنان لأفكارهم وأحاسيسهم وذاكراتهم وانفعالاتهم الإنسانية بأسلوب انسيابي ذي دقات متصاعدة، في لغة تعبر عن مكنوناتهم النفسية ورؤيتهم للواقع وما يتصل به من أمكنة وأزمنة وأحداث ومواقف .

وقد بدت رواية " حكاية جدار " للكاتب ناصر أبو سرور من الروايات التي تعتمد تيار الوعي أسلوبا للتعبير عن رؤية الكاتب للواقع وما تتصل به من أحداث ومواقف اجتماعية وسياسية من وراء جدران السجن، وبدا الكاتب يعبر عن وعيه بالأحداث التي لازمته منذ طفولته مرورا بتقلباته من سجن إلى آخر، حتى لحظة كتابته الرواية التي قدر لها أن تخرج إلى النور سنة 2022م، وتصدر عن دار الآداب للنشر والتوزيع .

ورواية حكاية جدار أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية، لكنها تختزل في مضمونها سيرة اللاجئ الفلسطيني الذي قدره أن يصادق الجدران ؛ فمن جدران المخيم إلى جدران السجون التي فرضتها ظروف الاحتلال وما يتصل بها من حياة اللجوء وواقع سياسي واجتماعي .

وقد قسم أبو سرور روايته إلى جزأين ؛ الأول تناول فيه حياة اللجوء والولادة والثورة والنضال والسجن، وكل ما اتصل بها من خيبات وخفاقات وانتصارات ؛ أما الجزء الثاني فرسم فيه حياة تبشر بالأمل، بعد أن ارتبط بعلاقة حب كانت بمثابة محاولة البحث عن فسحة خلاص من الجدار، لكنها انتهت بالعودة إليه .

و في حكاية جدار يحاول أبو سرور أن يحمل البنية السردية للرواية كثيرا من الأفكار والمشاعر والأحاسيس التي تتصل بالواقع الذي وجد نفسه فيه، فيرسم صورة لطفولته المعذبة في مخيم عابدة، هذا المخيم الذي يقع بين مدينتي بيت لحم وبيت جالا، ويسرد كثيرا من الأحداث التي عايشها، ويقدم صورة لواقع المخيم في ظل المعطيات المحيطة، وتارة يبدو متصالحا مع هذا الواقع، وأخرى رافضا له ؛ فلا تخلو روايته من رؤى ذات أبعاد فلسفية، وأخرى ذات أبعاد نقدية مازوخية .

وفي روايته يعبر عن مواقف متعددة تتصل بمسيرة النضال الفلسطيني ؛ فيعبر عن موقفه من نكبة 1948م، والانتفاضتين الأولى والثانية، والأسر، واتفاق أوسلو، والسلطة الوطنية الفلسطينية، ويروي كثيرا من الأحداث والمشاهد التي تتصل بمسيرته داخل السجون ؛ فيتحدث عن يومياته وتقلباته وزياراته وأحاسيسه وانفعالاته وأحزانه وآماله وأحلامه، وعلاقته بمحبوبته التي كانت تجسد خلاصه من الجدار قبل أن يعود إليه .

وهكذا، يأتي هذا البحث للوقوف على تيار الوعي في رواية "حكاية جدار" بوصفها نموذجاً لأدب السجون، وإن كاتبها ما زال رهين السجن، وقد حكم عليه الاحتلال مؤبداً مدى الحياة بتهمة المشاركة في الأعمال النضالية المقاومة للاحتلال، وقد قسم الباحث بحثه إلى ثلاثة فصول؛ الأول: تيار الوعي في الرواية، والثاني: أدب السجون أما الثالث فيتناول تيار الوعي في رواية حكاية جدار.

المبحث الأول: تيار الوعي في الرواية.

المطلب الأول: مفهومه:

يعد تيار الوعي اتجاهًا حديثًا في السرد الروائي، وثورة على الكتابة التقليدية التي تسير بشكل خطي وتتابعي، منذ بدايتها إلى خاتمتها؛ وقد تعددت التعريفات المتصلة بمصطلح تيار الوعي، ويعد وليام جويس أول من استعمل مصطلح تيار الوعي أو الشعور، وقد رأى أنه "جريان الذهن الذي يفترض عدم الانتهاء والاستواء" (غنايم، 1993، ص9)، كما عرف بوصفه نمطاً سردياً، يقوم على أساس الانسياب المتواصل للأفكار داخل الذهن (زيتوني، 2002، ص66)، وهو تيار الشعور الذي يعبر عن طريقة في الكتابة تعرض ما تدركه الشخصية من أفكار في إطارها العشوائي، بحيث يبدو تكتيكاً يشي عن المعاني والأحاسيس، دون التفات للبناء المنطقي أو التمايز بين مستويات الواقع المتصلة بالنوم واليقظة. (فتحي، 1986، ص116)

والمتمعن في التعريفات الخاصة بهذا المصطلح يجد أنها تنطلق من دلالة مفردة تيار التي تأخذ معنى الجريان والانسيابية التي لا تخضع لمنطق متسلسل أو منظم بصورة مخطط لها قبل عملية السرد، أما مصطلح الوعي، فهو يشي باتصالها بالعقل ومنطقة الانتباه؛ سواء أكان على المستوى الظاهري أم في مستواه الباطني؛ من هنا، فإن تيار الوعي يرتبط بعلم النفس التحليلي؛ لأنه محاولة إلى قراءة النفس من الداخل؛ من هنا، عرف أدب تيار الوعي بوصفه أدباً سيكولوجياً، وصار ينبغي أن يدرس عند النقطة التي يختلط بها علم النفس مع علم المقدرة العقلية (همفري، 2015، ص31).

وهكذا، فإن رواية تيار الوعي تتغذى في نسجها السردية على العالم الداخلي للكاتب، وهي ارتداد إلى الذات والتفات إلى ما تحتويه من مخزون ثقافي وفكري في سياق الحالة النفسية التي تسيطر عليها. (عليان، 2007، ص82)، وإن تيار الوعي في العمل الروائي هو منحى إبداعي بالغ الإثارة وهو استنطاق للعالم الداخلي واستنهاض للذاكرة التي تخص البطل المفترض، حيث يوغل نحو معطيات اللاوعي في تدفقها من مشاعر وأفكار وروى وكأنها محاولة للرؤية من الداخل، والرواية مثلها مثل الأعمال الفنية الأخرى تتغذى

على ركام من الانطباعات السابقة والذكريات والنزوات والقوى الغامضة التي تتحكم بنا وتستحوذ علينا من حيث لا ندري ؛ لذا فإن الفنان حين يبدع العمل الفني، فهو يحاول أن يتحرر من حالة الجهل واليكم ساعيا إلى التعبير بالصوت الحقيقي (الحاوي، 1979، ص 28) .

المطلب الثاني: ظهوره:

وقد ظهر تيار الوعي في الرواية العربية بوصفه نمطا كتابيا في مطلع الستينات من القرن الميلادي العشرين؛ إذ بدا يشكل ثورة على المنحى الواقعي الكلاسيكي الذي سارت عليه الرواية التي كانت تعد المجتمع محورا وعصبا لها ، قبل أن يصبح في الظل في المرحلة الحديثة ويحل محله الفكر ؛ وهنا، بدلا من أن تقتصر النظرة إلى البطل على كونه كائنا اجتماعيا وسياسيا يصبح فكرة أيضا . (سويدان، 2000، ص1211)

ويعد ناصف اليازجي، وأحمد فارس الشدياق وحافظ إبراهيم من رواد تيار الوعي حيث جاء تيار الوعي في أعمالهم الإبداعية تجسيدا لثورتهم على الأساليب الكلاسيكية في كتابة الرواية، وقد سار على هذا الاتجاه الكتابي نجيب محفوظ وجمال الغيطاني وصنع الله إبراهيم وإدوارد الخراط . (بدوي، 1993، ص 222)

المبحث الثاني : تيار الوعي في رواية "حكاية جدار" :

إن المتمعن في عنوان رواية " حكاية جدار " يجد أن عنوانها يتكون من كلمتين يشكلان تركيبا إضافيا؛ كلمة منسوبة إلى أخرى (حكاية - جدار) ؛ فالملاحظ أن الكاتب لم ينسب الحكاية السردية في روايته إلى نفسه، إنما نسبها إلى الجدار ؛ وهي نسبة مقصودة ذات دلالة رمزية ؛ فتحت له المجال ليحمل الجدار عبر تقنيات سردية متعددة كل أفكاره وذكرياته وحالته النفسية ورؤاه حول الماضي والحاضر والمستقبل ؛ وقد أنسن الجدار ومنحه صفات إنسانية ؛ بوصفه شاهدا على حياته، وملازما لوجوده، وإن اختياره للجدار يتصل بوصفه ملازما لحياته منذ تفتح وعيه على المخيم، حتى اعتقل وسجن ؛ فقد أمضى من عمره خمسا وأربعين ربيعا بين جدران اللجوء وجدران السجون، في حياة عنوانها الجوع والفقر والوجع والألم والقلق والخوف ؛ يقول : " أربعة عقود ونصف قضيت نصفها أمام جدار عظم في أزمة اللجوء والمخيم، تجاهلتي كل حياتي المحتملة في الطرف الآخر منه، حياة شفافه في حارات مخيم أصابتها كل لعنة توافرت في نواميس آلهة الغضب، طفولة جاعت حتى شبت جوعا، أب هدم الفقر رجولته حتى انحنى، وأم حفرت في الفقر بئرا حتى تيبست أطرافها ثم تكسرت، مراهقة خائفة ومتردة ومعتلة ... أما

نصف عقودي الثاني، ففضيتها خلف جدار وقع في غرامي وفي جرحي، التصق التصاق المحب وغازل كالعاشقين أول عشقهم، أكل من لحمي ومن عظمي .." . (أبو سرور، 2022، ص223)

وإن علاقته بالجدار أكسبته كثيرا من صفاته، أهمها الصلابة والثبات، وإن الجدار بالنسبة له لم يكن بناء إسمنتيا مثل كل الأبنية التي تحيط بنا، إنما حقيقة وجودية، ليس من السهل الانفلات منه، أو تجاوز حدوده، وإن كل محاولة للتحرر منه لن يكتب لها الفلاح؛ لأنه هو الثابت أمام هذه التغيرات التي تحيط به، يقول: "إنها حكاية جدار قرر أن يختارني شاهدا على ما يقول و يفعل، وما كان لجمل هذا النص أن تصطف لولا استنادها إلى عنصر ثابت ووحيد هو الجدار، وكانت تفرقت وتشظت لولا رعايته الصلبة ومراقبته لها عن كثب، لقد أعطاني الجدار صفاتي وألقابي كلها منذ بداية المشوار في المخيم، على هامش المدينة، في السجن، وفي قلب امرأة أو على أطرافه" . (المصدر السابق، ص7)

ويحمل الكاتب الجدار صوته وأفكاره ورؤاه وحالته النفسية التي جاءت على شكل تيار حر امتد إلى 343 صفحة من القطع المتوسط، قسم فيها روايته إلى جزأين، تفرع كل جزء منه إلى عناوين، يربطها خيط واحد هو تيار الوعي الذي يعتمد على مجموعة من التقنيات الأسلوبية التي تقوم على استنهاض الذاكرة واسترجاع للذكريات والتعبير عن التفاعل مع الأحداث والانتصارات والانكسارات والخيبات من وراء جدار السجن، يقول: "أنا صوت هذا الجدار وهكذا قرر أن يتكلم، إنها كتابة السجن بكل ما فيها من اضطراب وتوعك وتخبط، ولم تولد هذه الكتابة خلال حديث مسائي في أحد مقاهي المثقفين حول مائدة تعج بالمشاريب والأخبار، بل ولدت من رحم جدار إسمنتي حتى تكاد تחדش، إنها كتابة مطعمة بالحديد الصلب والإسمنت" . (أبو سرور، 2022، ص87)

وهكذا، تأتي رواية "حكاية جدار" لتشكل تجسيدا حيا لفلسفة الكاتب نحو الكتابة، فهو يعلن صراحة في غير موقع عن هذه الفلسفة، فيرى أن الكتابة سقوطا فيزيائيا على الورق، واحتواء آمنة، وفي هذا السقوط لا بد من الارتداد للذاكرة، ونبش لكل ما فيها من ذكريات وآمال وآلام وأوجاع بعد ما يزيد عن ربع قرن من السجن، سبقها ما يعادلها في حياة المخيم، يقول: "وبدوافع محمومة تدركني أو فيزياء تعيد للأشياء صفاتها الأولية؛ وبدوافع محمومة للخلاص قررت السقوط حاملا معي كل ما علق بي أو تعلقت به للخلاص قررت السقوط حاملا معي كل ما علق بي أو تعلقت به قرابة نصف قرن، جاعلا الكتابة آلية للسقوط على الورق، بكل ما فيه من إمكانيات احتواء يعيدني إلى مربعاتي الآمنة" . (المصدر السابق، ص15)

والكتابة . بحسب الكاتب . علاج واستمطار لكل شح، وهي رؤية في مضمونها تعبر عن ارتداد لما تخفيه النفس، وتخزنه الذاكرة التي تبدو بصورة أو أخرى منسجمة مع الاتجاه الذي ينطلق منه السرد في تيار الوعي، يقول: " في الكتابة علاج وفسحات، وكلّ ما شحت به الدنيا عليك من مساحات بيضاء أنت تملي عليها سطورها بأي لغة تختارها أنت". (المصدر السابق، ص73)

والمتمعن في أبرز تقنيات تيار الوعي في رواية "حكاية جدار" يجد أنها متعددة، يمكن حصرها في السرد المنقطع، والتداعي الحر، ومناجاة النفس، والمونولوج الداخلي، وهي تقنيات متداخلة في بنية الرواية ونسيجها؛ لذا، فإن الفصل بينها يأتي في باب التمثيل عليها، بوصفها تشكل مع اتجاهها رواثيا وأسلوبا سرديا دالا .

المطلب الأول: السرد المنقطع :

يعد السرد المنقطع واحدا من تقنيات رواية تيار الوعي؛ وهو يقوم على عدم الالتزام المنطقي بتسلسل الأحداث بصورتها التقليدية المتصاعدة التي تبدأ من الماضي إلى الحاضر؛ فقد يبدأ الكاتب أحداث روايته من اللحظة الراهنة، ثم يعود إلى الماضي، وربما يكون السرد في روايته محكوما لفكرة أكثر مما هو محكوم للأحداث التي تتصل بها؛ حيث ينتقل من فكرة إلى أخرى، وهو ما يعكس الطبيعة غير الخطية في التفكير البشري .

والقارئ لرواية "حكاية جدار" يجد أنها مبنية على السرد المنقطع؛ حيث ينتقل الكاتب من فكرة إلى أخرى ومن فرع إلى آخر في كثير من الأحيان لا تربط بينهما فكرة واضحة، ولا ينتميان إلى حقل معجمي محدد؛ فبعد صفحة الإهداء الموجهة إلى أمه (مزيونة) ومحبوبته (ننا) وأخته (شذا)، و صفحة التمهيد المعنونة بـ(هكذا تكلم الجدار) جاءت الرواية مقسمة إلى جزأين، يتفرع كل جزء منهما على النحو المبين في الجدولين الآتيين :

الجزء الأول : أنا، ربي وضيق المكان :

1	تخل وتمسك	9	عزل انفرادي	17	فراق
2	أول الأمر	10	جوع	18	انتفاضة الأقصى
3	مخيم	11	عسقلان	19	ألم
4	انتفاضة الحجارة	12	زيارة	20	مؤبد

5	أسئلة	13	أوسلو	21	أم خالد
6	آلهة صغيرة	14	خوف	22	ربيع
7	صباح مؤجل	15	في السجن	23	الدفعة الرابعة
8	اعتراف	16	ربي	24	

الجزء الثاني : أنا وقلبي وضيق المكان

1	ننا	9	تشرين أول الحكاية، تشرين خريف الانتظار
2	معنى الاشتياق	10	بكاء المدينة
3	ها أنا يا بحر يافا	11	لم يكن يوما عاديا
4	لأنني أحبك	12	أي جداري
5	كلام في الحب	13	حب ولكن
6	هل بشرتم مرة أسيرا بموت أمه ؟	14	ضيق مزدحم وعجوز
7	جسد	15	غرور
8	تشرين	16	

والمتمعن في العناوين الواردة في الجزء الأول يجد أنها تكاد تنتمي إلى حقول لغوية متعددة ؛ وهي السجن، المخيم، الثورة، المشاعر الإنسانية، الفلسفة) ؛ أما العناوين في الجزء الثاني فكثير منها يكاد ينتمي إلى حقل الحب، وبعضها إلى السجن . وقد فتح هذا التنوع وهذا التقطع في السرد الباب أمام الكاتب ليطلق العنان لما يختزن لديه من أفكار ومشاعر وذكريات وأحاسيس وفلسفات حول أحداث الماضي ووقائع الحاضر وتنبؤات المستقبل، بسرد متقطع لا يخضع إلى معيار التسلسل المنطقي بقدر ما تفرضه الحالة النفسية التي يعيشها الكاتب، وقد عبر عن ذلك صراحة، يقول : " كتبتُ بكل ما فيَّ من نقاط وفواصل، تارة أقطع وتارة أربط، كتبتُ ملتزما بما أملاه عليّ الجدار وحسب قوانين تخصه وحده، كتبت كالذي جاء يكتب كلاما أخيرا قبل توقف الساعة عن الدوران ؛ كتبت بلا معالجات لغوية، سوى التي عانى منها الجدار، وأصر على تدويرها ؛ كتبت لأن القراءة في زمن الشخّ صارت فعلا جبان " . (أبو سرور، 2022، ص8)

ولم يقتصر السرد المتقطع على المستوى العام المتعلق بالعناوين الفرعية داخل الرواية، إنما يتعدى ذلك إلى داخل النص الواحد، ففي النص الذي يحمل عنوان " هل بشرتم مرة أسيرا بموت أمه ؟" الذي يقوم في مجمله على نقل خبر وفاة أم أحد أصدقائه الأسرى ، وقد وكل إليه الأمر أن يقوم بذلك، وفي النص يصف صعوبة المهمة التي وكلت إليه، ويصف ردة فعل صديقه، والحزن الذي اجتاحه، والألم الذي اعتصره، يقول: " بكى حتى اختنق وبلل الحديد وجهه، حدثناه عن رب رحيم أخذ قبل ساعة أمه، لم يستمع كمال لنا، ولا أظنه سمع حديثنا، يما، ظل كمال يصرخ أمه، ويعانق حديده " (المصدر السابق، 246). وفجأة يأخذ السرد لديه منحى آخر، فيستذكر أمه، التي فرحت بحبيبته، يقول: " لا زالت لدي حكايتي، أرويه، أين وصلنا ؟ عند مزيونة التي فرحت بحبيبة ابنها ... " (المصدر السابق، الصفحة نفسها)

والسرد المتقطع الذي تبنى عليه رواية " حكاية جدار " لا يلغي حقيقة أن الرواية من بابها إلى محرابها تدور حول فكرة ذات دلالة فلسفية مفادها ؛ الدعوة إلى الثبات، ووجوب التكيف مع الواقع والتصالح معه، دون الخضوع لتقلباته؛ لأن ذلك جزء من التعبير عن غريزة البقاء التي تؤكد رفض الفناء والتمرد على أدواته؛ إذ إن التخلي بحسب رؤية الكاتب هو أساس التمسك وهو الذي يقود إليه ويعززه، يقول: " ولكن يبدو أنني عرفت منذ البداية أن علي التخلي عن سؤال الحرية ومعانقة ذلك الجدار، مدركا تماما أنني أفعل ذلك آلية دفاعية عززتها غريزة البقاء " . (أبو سرور، 2022، ص13)

المطلب الثاني: التداعي الحر .

يعد التداعي الحر أهم المظاهر التقنية التي تعرف بها روايات تيار الوعي ؛ وهو مقوم رئيس ينطلق من أبعاد نفسية أشار إليها فرويد، حين كان يطلب من مرضاه أن يطلقوا العنان لأفكارهم وأن يقولوا كل ما يخطر ببالهم ويسترسلوا في التعبير عن ذكرياتهم دون قيود أو شروط ودون إضمار شيء وإن كان معيبا أو مشينا أو تافها أو مؤلما "، (فرويد، 2000، ص14) وهذه الطريقة أشبه ما تكون بالتنويم المغناطيسي الذي يهدف إلى استرجاع الأحداث والتجارب ذات الارتباطات الشخصية وتذكرها التي سبقت الحالة المرضية التي تصيبهم .

وتبرز النزعة نحو التداعي الحر في رواية حكاية جدار منذ السطور الأولى في الرواية حتى نهايتها ؛ حيث تنطلق روايته في هذا التداعي من فكرة يختزلها العنوان الأول من القسم الأول " تخلّ وتمسك " الذي جاء يمثل حلقة في سلسلة حلقات تصل إلى ثمان وثلاثين عنوانا؛ كلها تقوم في بنيتها على تداع حر يفضي إلى فلسفة ورؤى وأفكار تتصل بحياة الكاتب بوصفه فلسطينيا عاش حياتين ؛ يتمثلان في اللجوء والسجن .

وقد برز التداعي الحر على امتداد رواية "حكاية جدار" بأوجه مختلفة، أبرزها الانبعاث العفوي للذكريات التي بدت ملمحا واضحا في الرواية؛ من ذكريات الطفولة المعذبة في المخيم، إلى ذكريات العلاقات داخل أسرته، والنضال، والتحقيق، والتنقلات من سجن إلى آخر، وحبه لننا الذي أدخله في جدار جديد، وبدا محاولة فاشلة للخلاص من جدار السجن، الذي حكم عليه أن يبقى ملازما له. يقول - على سبيل المثال لا الحصر - في باب بعث ذكريات الطفولة المعذبة في المخيم: "والبيوت في حاراتنا لا يتجاوز عددها أصابع القدم الواحدة، قديمي العارية والخشنة، التي اشتدت وباتت تحملني بخفة شاقا زقاق المخيم، متفلا بين حاراته الضيقة، التي أخذت تضيق أكثر على جسدي، وقد بدأت تظهر عليه علامات السنين غير مبالية بجمادية المكان، وعجزه عن التمدد ..". (أبو سرور، 2022، ص24)

ويسهم الخيال في الرواية في استحواذ التداعي الحر على من المشاهد في الرواية، فها هو يرسم صورة سلبية لمدينة بيت لحم؛ فيرى أنها تنكرت للمخيم وناصبته العداء وأدارت له ظهرها، يقول: "أول ما لفت انتباهي هو اصطفاف البيوت وقد أدارت ظهورها للمخيم، ولم أدر فعلت ذلك تجاهلا أم لأسباب غابت عن فهمي وإدراكي، ولكني رأيت في اصطفافها على هيئتها فعلا عدوانيا". (المصدر السابق، ص25)

ويبرز التداعي الحر بحسب رؤية سارتر الفلسفية من شعور الإنسان بالقلق والخوف والغثيان الذي ينعكس من وجود الآخر؛ لأنه يحول دون تحقق وجوده البشري الأصيل. (حادي، 2004، ص59) وقد عبر الكاتب عن هذا الشعور بصورة لافتة على امتداد الرواية، يذكر منها، القلق الذي يلاحقه بسبب الواقع الذي لحق باللاجئ الفلسطيني وفرض عليه مسميات، جعلته محاصرا بالاتهامات التي قزمت أوجاعه النازفة، يقول: "وأسقطت عليه ما تيسر في معاجمها من مرادفات للخائن والهارب والمهاجر واللاجئ الغريب والطريد والدخيل وغيرها من المفردات التي ساهمت في إقصاء المخيم عن سياق ما يحدث أو لا يحدث فإرضة عليه زمانا ومكانا موازيين". (أبو سرور، 2022، ص26)

المطلب الثالث: مناجاة النفس:

تعد مناجاة النفس تقنية من تقنيات تيار الوعي، وقد عرفت هذه التقنية في الأعمال المسرحية الإغريقية، حيث تلجأ الشخصية إلى الحديث مع ذاتها، في حديث مسموع للجمهور، ذي ارتباط بالحبكة وما يدور في فلكها من أحداث وشخصيات. (حادي، 2004، ص54)

وتبرز مناجاة الكاتب لنفسه في غير فرع من فروع جزأي الرواية، ففي الجزء الأول يظهر ذلك تحت عنوان "في السجن" حيث يحدث نفسه بلغة شعرية؛ معبرا عن المشاعر التي تتنابه، والأحاسيس التي

تسيطر عليه، ويصف يوميات السجين وإحساسه بالزمن، وعلاقته بالمكان والأسرى الذين يعيشون ظروفه، كل ذلك جرى على امتداد ثماني صفحات بصورة انسيابية غير خاضعة لقيود يقول: (أبو سرور، 2022، ص 111-118)

في السجن ..

أنت اغتراب كل شيء فيك،

...

في السجن ..

أنت حديث الناس عنك

ليس فيك ما يستحق الرواية إلا

ما نقلوه عنك في غيابك

...

في السجن ..

تودع صباحات جاءت تستقبل وجهها

غيرك

في السجن ..

لا شيء يشهد حضورك، أنت لست هنا " ...

ويناجي الكاتب نفسه حين يسيطر عليه الحزن وتحيط به الأوجاع ويتسلل إلى صدره اليأس؛ فيحقق نفسه بكلمات تعيد ترميم نفسه، وتشد من عضده، ويصبح أقدر على مواجهة واقعه في السجن، فها هو يفعل ذلك بعدما فقد أمل خروجه من السجن ضمن صفقة من صفقات تحرير الأسرى؛ فيقدم شخصية سيزيف الأسطورية معادلاً موضوعياً له، حاثاً نفسه على أن تتبنى الموقف القديم الذي يرى في التخلي مدخلاً للتمسك: "احمل صخرتك يا سيزيف فلا شيء يشبه الوصول سوى جهد المحاولات، كل مرة هي مرتك الأخيرة، وكل جبل هو صعودك الأخير، فخذ معك موقفك القديم ولا تتوسط". (أبو سرور، 2022، ص 184)

ويناجي الراوي نفسه حين تزوره (ننا) في سجنه ، واصفا تلعثمه وتعثره أمام قريبها ؛ فيبدو كمن يستغرب من تلك الحالة النفسية التي تنتابه، وهذا التجلد الذي يسيطر على جسده وأحاسيسه، يقول : " ويح جسدي ! ليس أنا من يتعثر أمام قبلة، ويفقد إحساسه بالاتجاه " . (أبو سرور، 2022، ص263)

و تحت عنوان " غرور " الذي يأتي خاتمة للرواية يناجي الكاتب نفسه بلغة فيها تحد وتعال واستعلاء على واقعه بعد النهاية التراجيدية لعلاقته ب (ننا) ؛ وهذا الاستعلاء ينسجم مع فكرة التخلي التي افتتح بها روايته، فهو يبني روايته على هذه الفكرة التي يستمد وجوده منها، يقول : " في سجنني أنا سيد هذا الجدار وكل جدار قبله، وأي جدار يأتي بعده، أنا سيد هذه الشرفات وما تطلّ عليها .. أنا رب هذا الركن ورب زنزانتني، ورب مؤبدي، ورب هذا السقف، ورب الانتظار، وهذا القاع لي " . (المصدر السابق، ص342)

المطلب الرابع: المونولوج الداخلي

يعد المونولوج الداخلي أهم مقومات رواية تيار الوعي، وهو تقنية تستخدم في الفنون السردية، " يهدف إلى تقديم المحتوى النفسي للشخصية، وأوجه تفكيرها " . (غنايم، 1993، ص14) .

وإن الكاتب في رواية "حكاية جدار" يستخدم تقنية المونولوج الداخلي للتعبير عن أفكاره وفلسفته وأحاسيسه وحالته النفسية وخاصة حين يتصل الأمر بفاجعة وحزن، ويستخدم المونولوج حين جاءه خبر استشهاد الأسير فارس بارود في سجن رامون الصحراوي، الذي كان مثله يقضي حكما مؤبدا، وقد كان وقع هذا الخبر عليه عظيما، وحزن عليه حزنا كبيرا، وعبر عن ذلك في مخاطبته صديقه الشهيد، واستحضره قائلا : " خذ معك يا فارس كل وحوشك الحديدية، وادفنها عميقا معك، خذ معك سيجارة وقترتها من أجلي حين عزت السجائر، خذ معك صوتك الأسدي الخشن، خذ معك أنفاسنا الثقيلة، ورطوبة الرملة، .. خذ معك ما تبقى من ذكريات عن أمك قبل وبعد رحيلها .. " (أبو سرور، 2022، ص 72)

وقد برز المونولوج حين وصله خبر وفاة والده، حيث عبر عن حزنه والمه، وجاء المونولوج على شكل اعتذار لأبيه الذي استحضره من مخيلته وأجلسه أمامه، وبدا كمن يكفر عن ذنوب اقترفها بحق والده، وهي ذنوب لا تتجاوز اتهامات استبطنها في ذاكرته تجاهه، يقول : " أخرجت أبي من قبره وأجلسته أمامي على سريري، ورحت أقدم له اعتذاراتي، أعذر منك يا أبي عن موتك، وعن حياتك، وعن أرضك وما نسيت زراعته فيها، وعن نفيك عن بيت نتيّف عن الخيمة والغربة وقلة الحيلة، عن فقرك وجهلك وجبسك عواطفك ... " . (المصدر السابق، ص 130)

ويستخدم المونولوج الداخلي ليحقق روحه بحقنات نفسية تساعد على الصمود في مواجهة أوجاعه وحده؛ فلا ينتظر أن يحملها عنه أحد، وهنا، يستذكر الفلسفة التي ألزم نفسه بها منذ أن دخل السجن؛ في أن التخلي هو عنوان لكل تمسك، يقول: "قابلت جداري، وقلت لنفسي بصوت مخروس: قد تخليت فلا تتمسك، هذه أوجاعك فاحتملها، ولا تغتلبها فيقتلك ما فيها من ألم... أبوك ليس هنا، وأمك اعتادت خيانات بقائك بعيداً". (المصدر السابق، ص 176)

وقد برز المونولوج في الرواية بعد عودته إلى جدار السجن الذي بدا ينتظره، ويترقب عودته بعد أن اصطدم حبه لـ (ننا) بالواقع، وصحوته على حقيقة أنهما لن يلتقيا، إذ، جاء المونولوج على شكل حوار داخلي تحت عنوان "حب.. ولكن" أنسن فيه الجدار، يقول: (المصدر السابق، ص 322)

- خفتُ ألا تعود .

- أنا لا أخلي من تمسك يا ناصر .

- ولكني تخليت .

- وأنا انتظرتك حتى تعود .

وتحول المونولوج في سرده لهذه النهاية التراجيدية لعلاقته بـ (ننا) إلى أسئلة تقض مضجع الكاتب، فلم يكن من السهل عليه هذا الارتطام الذي صحا عليه بعد ثلاث سنوات من التحليق في حب لم يتوج باللقاء، يقول: "هل تدخل الآلهي إلى الأماكن الضيقة؟ نعم، تدخل. لكنها لن تبقى طويلاً. دخلت ننا إلى ركني الصغير، ورأت فيه ما يشبه غزلها وأسئلته للبحر... انتظرت عاماً وبكت عاماً، وزرعت الثالث خوفاً كاد يفتك بي وبها". (أبو سرور، 2022، ص 331)

الخاتمة :

وهكذا، حاول الباحث أن يكشف عن أبرز ملامح تيار الوعي في رواية "حكاية جدار" للكاتب الفلسطيني الأسير، والمحكوم مدى الحياة في السجون الإسرائيلية، وقد وقف على مفهوم تيار الوعي، وظهوره في الرواية الغربية كمقدمة لبروزه في الأعمال السردية في الأدب العربي الحديث .

وقد تناول الباحث أبرز التقنيات الأسلوبية المتصلة بتيار الوعي في رواية "حكاية جدار" ووجد أنها جاءت على عدة أساليب، وهي: السرد المتقطع، التداعي الحر، مناجاة النفس، المونولوج الداخلي . وقد سمحت هذه التقنيات للكاتب أبو سرور مثل غيره من الكتاب والروائيين أن يطلق العنان لقلمه للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره وفلسفته .

المصادر والمراجع :

1. بدوي، محمد : الرواية الجديدة في مصر (دراسة في التشكيل والأيدولوجيا)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993م .
2. حادي، أحلام : جماليات اللغة في القصة القصيرة /قراءة لتيار الوعي في القصة السعودية، المركز الثقافي العربي، 2004م .
3. الحاوي، إيليا : في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، ط4، 1979م .
4. زيتوني، لطيف: نقد الرواية، دار النهار للنشر، لبنان، 2002م .
5. أبو سرور، ناصر : حكاية جدار، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2022م .
6. سويدان، سامي : نظارات السرد ومدارات التخيّل، الحرب والقضية والهوية في الرواية الفلسطينية، دار الآداب، بيروت، ط6، 2000.
7. عليان، حسن : الرواية والتجريب، مجلة جامعة دمشق، المجلد 23، العدد2، 2007م .
8. فرويد، سغومند : الموجز في التحليل النفسي، ت : سامي محمود العلي، عبدالسلام القفاش، مهرجان القراءة للجميع، 2000م .
9. غنايم، محمد : تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1993م .
10. فتحي، إبراهيم : معجم المصطلحات الأدبية، التعااضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، 1986م .
11. همفري، روبرت : تيار الوعي في الرواية الحديثة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015.